توطئة:

عرف الواقع الثقافي العباسي . بعد شيوع أسلوب السرد المترجم عن كتب الفرس والهند وغيرهما . منعرجا هاما في حياة العرب، فتوسع الاهتمام فيه إلى الكتابة والإنتاج بل والإبداع على منواله، فتشعبت أغراضه وتنوعت فكان فيه للتسلية والوعظ والأسطورة، بتنوع مصادره من كتب الدين وقصصه وسير الأقدمين وأخبارهم وحوادثهم، ومن أشهر الكتب التي حوت القصص: العقد الفريد والأغاني وعرائس المجالس والمستطرف وغيرها.

ومن أهم تلك الروافد المترجمة عن أدب الفرس؛ ويُعتقد أنه كان لها الأثر البارز والسبب المباشر في توجيه الاهتمام العربي، إلى الإنتاج السردي بتلك الطاقة والإبداعية المتنوعة في العصر العباسي، كان كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، الذي باتت « شهرته تقوم على كتاب كليلة ودمنة، وهو أشهر كتبه وأعظمها،وأدلها على أسلوبه، وأجلها في تاريخ الكتابة الأدبية»[1]، ورغم أنه قدم للساحة أعمالا كثيرة ضاع معظمها في فترة حياته القصيرة، إلا أنه يمكن القول لو لم يكن لابن المقفع من اجتهاد فكري غير كليلة ودمنة، لكفاه ذلك أن يحوز تلك المكانة العلمية في عصره.

التعريف بكتاب كليلة ودمنة:

عد كثير من الدارسين كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع من أدب السلطة، عرفته الساحة الفكرية العربية زمن بداية التأسيس للدولة العباسية والانفتاح على الفرس، وقد يكون ابن المقفع استغل ذلك التوجه والتعاون الفارسي العربي، ليدفع بجملة من المؤلفات الفارسية يرى فيها تتويجا لمعاهدة التعاون وترسيخا لذكرى ذلك الامتزاج، في ظل عدم استياء السلطة العباسية من ذلك النشاط بل كانت تشجع عليه، وهذا ما نلمسه من سرعة الاندماج بالموروث الفارسي الذي تهاطل على الساحة الفكرية، حتى بات كتاب كليلة ودمنة من أهم تلك الأعمال المرحب بها في

(1).عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1981، ص 53.

رغم ما يحمله من رسائل ملغمة لم يتنبه إليها الحكام العباسيون، إلا بعد انتشاره حين بات جزءًا من واقعهم الفكري وواجهة منتوجهم.

فحضوره في الساحة الثقافية العباسية كان حدثا بارزا وعلامة فارقة حينها، فقد استقبله البلاغيون باهتمام كبير واعتبروه علامة من علامات بلاغة صاحبه، «بل تُعد آية من آيات البلاغة العباسية على الإطلاق»(1)، وقفزة كبيرة في نهضتها العلمية رغم انتهاجه نهجا مختلفا عما تعودوه في أمر حكيهم، خاصة باستنطاقه الحيوانات واستعقاله البهائم، وهذا مما لم تفكر عقولهم استحضاره أو التعامل معه.

أصل كتاب كليلة ودمنة:

تذكر بعض المراجع في أصل الكتاب استنادًا لما ورد في مقدمة مؤلفه ابن المقفع، أنه يعود لأصول هندية، ويرى المدققون في أمر ترجمته أنه تمت كتابته باللغة السنسكريتية في القرن الرابع الميلادي، ثم أنه تُرجم من السريالية إلى الفارسية 570م و إلى العربية 750م.

إلا أن بعض الجهود الأخرى والعاملة بالبحث حول أصل الكتاب، ترى أن كليلة ودمنة كتاب عربي النشأة والتأليف؛ ألفه ابن المقفع نفسه واختلق تلك الحكاية المذكورة في مقدمة الكتاب، لاعتبارات خاصة دفعته لإخفاء حقيقة الكتاب.

وهناك أفكار واحتمالات أخرى في حقيقة أصل الكتاب، كانت نتيجة مقارنات وعرض حالة الكتاب انطلاقا من عناصره، كالمؤلف وثقافته وسعة اطلاعه وحياته المضطربة، وخصوصية واقع البيئة والساحة الثقافية العباسية آنذاك، إضافة إلى الكتاب وأفكاره وسياقات التعبير التي تخللت محتوياته، والرسائل التي اندست وتطل من وراء سياقات مضامينه. ما

(1).شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج3 العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط16، د.ت، ص 521.

يدفعنا إلى التساؤل: هل الكتاب مترجم كما أعلن صاحبه؟ أم كان مؤلَفا؟ كما استنتج البلاغيون قديما وعاضدهم النقاد الدارسون حديثا؟

نظريات حول أصل كتاب كليلة ودمنة:

أولا: الكتاب مترجم:

أولى النظريات في أصل كتاب كليلة ودمنة تستند إلى ما اعترف به ابن المقفع ذاته، في طيات المقدمة التي صدر بها الكتاب؛ وذكر « أن الكتاب هندي الأصل، نقله الفرس إلى لغتهم، ثم جاء هو فنقله من الفهلوية (الفارسية القديمة) إلى العربية»[1]. وفصّل فيها قصة منشأ الكتاب وأصله الأول؛ كمنهج علمي في تأليفه وقد اتسع البحث في أصول القصة، وأكمل الدارسون بقية ما لخصه المؤلف، فموجز أصل القصة أن الاسكندر الرومي اجتاح بلاد الشرق، وكان من ضمنها بلاد الهند وعيّن عليها أحد أتباعه، إلا أن الرعية لم يرضوا بذلك الحاكم الأجنبي، ما دفعهم لخلعه واختيار دبشلم ملكاً عليهم. لكنه ما لبث أن تبدّل حال حكمه من عادل منصف إلى طاغية، وهو ما دفع بالفيلسوف الحكيم بيدبا إلى الذهاب إليه لنصحه، وبعد أن استمع الملك إلى كلامه غضب منه وأمر بقتله وصلبه، قبل أن يُحجِم عن ذلك فسجنه. وبعد أمد من التدبر قام الملك بإخراج بيدبا من سجنه، وطلب منه إعادة كلامه عليه فقام بذلك، وكان دبشلم يستمع متأثراً ومقتنعا بكلامه ثم أمر بفك قيوده، ثم قرّبَه وزيراً عنده. هذا الأمر كان بداية وضع الكتاب، وحينها أمر الملك بأن يُدوّن الكتاب وتحفظ نصائح الحكيم في خزانة الملك، لتكون علما عزيزا وارثا قوميا لا يتاح للناس.

وهكذا في القرن السادس الميلادي علم كسرى الأول أنو شروان بأمر الكتاب، فطلب من وزيره بزرجمهر بن البختكان أن يبحث له عن شخص حكيم وذكي يتقن الهندية والفارسية، للقيام

(1).عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ص ص 54 . 55.

بمهمة استخلاص الكتاب ونقله إليه، فوقع الاختيار على الطبيب برزويه[*]، فأمره أن يتوجّه إلى الهند لذلك وتحصيل ما يجد من كتب، وفي مدة إقامته بالهند، خالط عدداً من خواص الملك علمائهم وفلاسفتهم، وجعل يوهمهم برغبته في تحصيل علومهم، مُلِحًا على حاجته إليهم في تحقيق ذلك، إلى أن استطاع الحصول على ما جاء من أجله بحسن خلقه وحكمته ودهائه. وكان يرسل ما يحفظه منها إلى أنو شروان بشكل مستمر، وقد تولى بزرجمهر الكتابة، وبعد أن أتم نسخ الكتاب وغيره من الكتب وأعلم أنو شروان بذلك طلب منه العودة. وبعد أن عاين الملك ما أصابه من تعب في تحقيق الأمر، أمره بأن يطلب ما أراد، فكان طلبه بأن يقوم الوزير بزرجمهر بتأليف باب؛ يحتوي كلاما يصف فيه خبر برزويه في تحصيل الكتاب، وأن يجعله أول أبواب الكتاب، فكان له ما أراد، فالكتاب إذا نُقل «في عهد كسرى أنوشروان من الهندية إلى الفهلوية، وقد عثر الباحثون على بعض أصولها الهندية، من مثل "بَنْجَ تانترا" ومثل "هتو بادشا" ووجدوا منها بعض أصول "المهابهارتا"، مما يؤكد أنها هندية الأصول»[1]

هكذا أصبح الكتاب موروثا وطنيا لفارس، وشملته مكتبة حاكمها مع مقدسات المواريث العلمية والفكرية، وحينما تحولت الساحة العربية إلى ساحة استقطاب للعلم والحضارة والنهضة، ارتأى ابن المقفع أن يشارك في بنائها من خلال ترجمة سيل من الكتب الحضارية الفارسية، إلى العربية ومن ضمنها كتاب كليلة ودمنه بكل محموله الحضاري.

(*)جاء برزويه إلى أنو شروان، وقال: أيُّها الملك، إني قرأت في كتاب هندي أن في جبال الهند عشبًا إذا رُكّب منه دواءٌ فنُثر على ميت ارتد حيا، فجهزه أنو شروان وسيره إلى الهند، وبعث معه كتابًا إلى الملك؛ فلما أخذ ملك الهند الهدايا وقرأ الكتاب جمع علماءه وسَيّرهم مع برزويه لطلب هذا العشب في الجبال، فجمعوا كل ضرب من العشب وجربوه، فما أحيا ميّتًا، فندم برزويه على ما جشم نفسه من مشاقّ السفر والطلب، وتحير ماذا يقول للملك أنو شروان، ثم سأل من كان معه من العلماء: أتعرفون في الهند أعلم منكم؟ قالوا: نعم، شيخٌ يفضلنا علما وسنا، فلما جاءه وقصّ عليه القصص قال: أما الجبال فهي العلوم، وأما الموتى فهم الجُهّال، وأما العشب فكتاب في خزائن ملك الهند يُسمى (كليلة ودمنة) يحيي موتى الجهل، فأسرع برزويه إلى ملك الهند يرجو أن يطلع على الكتاب، فاغتم الملك، وقال: ما طلب أحد هذا الطلب من قبل، ولكنا لا نضن على الملك أنو شروان بشيء، وأمر أن يؤتى بالكتاب وأن يطلع برزويه عليه أمامه حتى لا يظنّ أحد أنه نَسخه، فكان برزويه يقرأ كل يوم فصلا، إلى آخر ما في القصة الباب» من كتاب:عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، تحقيق عبد الوهاب عزام وطه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، د. ط، 2014، ص31

(1).شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج3 العصر العباسي الأول، ص 520.

ثانيا: منقول إلى العربية مع التغيير:

لقد كانت ترجمة كتاب كليلة ودمنة إلى العربية في القرن (2هـ / 8م) ، وقد دعت إليه ضرورة حضارية كان قد كتمها ابن المقفع، خاصة وأنه كان على تواصل مع الحياة السياسية والاجتماعية بداية من العصر الأموي، وما كان فيه من معاناة التهميش كمسلم غير عربي، أو حتى من خلال حكم العباسيين الدموي، والقمع الذي لاح في سياستهم لكل الشعب، خاصة بعد ما عايشه من تجبر الخليفة أبي جعفر المنصور، فارتأى ضرورة نصحه، ولعلمه بذكاء الخليفة وغدره اختار هذا الكتاب، بما يحمله من ثقافة التعامل وسياسة الحكم للراعي والرعية معا، وحتى يتحاشى غضب الظالم وينجو من عقابه، عمل على توجيه قصصه وتغيير ما رآه مثارا للسخط، وحاول تلطيف النصح في قصصه التي جاءت على لسان حكيمه بيدبا مع الملك دبشلم، مشابهة لما كان هو عليه مع الخليفة المنصور، فتميزت ترجمته بخصوصية الظرف الزماني والمكاني، وأضاف بعض القصص من تأليفه وعدّل في أخرى، وأضاف إليها بأسلوبه ما السلس مسحة من الفكاهة والنكتة، كما قام باستحداث باب أسماه «الفحص عن أمر دمنة»، وقام بإلحاق أربعة فصول به لم ترد في النسخة الفارسية، « ولكن ربما زاد ذلك بعض من جاء بعده، إذ تُرجم الكتاب مرارا، وأكبر الظن أن ابن المقفع لم يزد إلا الفصل الذي وضعه بين يدي القصص، وسماه "عرض الكتاب"... وإذا كان متهما فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل»(1).

ثالثا: الكتاب مؤلف:

استنادا للعلاقة السيئة بين ابن المقفع والمنصور وخاصة بعد كتابته لصك الأمان ضده، واعتبارا الظلم الحاصل من الخليفة لرعيته، يقال أن ابن المقفع تشجع في كتابة هذا المؤلف، انطلاقا من رصيده الفكري، واطلاعه على آداب الهند وفارس وغيرهما، استحسن أسلوب الوعظ باستخدام الطيور والبهائم، بحكم أنها غير ممارسة في أدبنا العربي قبل ذلك. وكان اطلاعه ذلك على «بعض أنظمة الحكم الساسانية، وبما سمعه عن قانون جوستنيان الروماني، وكان من

(1).شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج3 العصر العباسي الأول، ص 520.

المحقق أنه صدر فيها عن فطنة، وقوة ملاحظة لأحوال الدولة الإسلامية في عصره، وما حذقه من شؤون السياسة التي استوحاها مما قرأه عند الأوائل، ودائما لا نستطيع أن نُخْليه في كتاباته من التأثر بالثقافات الأجنبية، إذ كان أكبر من اطلعوا عليها في عصره، وكان ذهنه من الخصب بحيث يستنبط كثيرا من الآراء والأفكار وخاصة ما يتصل بالإصلاح الاجتماعي والسياسي، ولعل هذا الإصلاح الذي كان ينشده للدولة العباسية، هو الذي دفعه إلى ترجمة القصص الخيالي الهندي أو بعبارة أخرى ترجمة كليلة ودمنة»[1].

وبتتبع بعض الباحثين لأصول قصص الكتاب، ثبت لديهم أنها « معروفة بأعيانها أو بأشباهها عند اليونان، وعند الفرس وعند الهنود وعند اليابانيين: وعلى هذا يكون عبد الله بن المقفع قد استقى القصص من الأدب الفارسي والهندي، ثم ساقها سياقا هو أوجده واستخلص منها العبر التي يريدها هو، وأضاف إليها أو حذف منها فيكون كتاب كليلة ودمنة إذن، غير منقول عن اللغة الفارسية، إذا اعتبرنا أن النقل إنما هو وضع الآراء الأجنبية في لغة عربية، مع التقيد بكل شيء. وكذلك يكون الكتاب مؤلفا تأليفا مستقلا، إذا اعتبرنا أن ذلك يقتضي الابتكار والاستقلال عن المجاري الأجنبية الخارجية؛ وهكذا يكون عبد الله بن المقفع . حسب هذه النظرية. قد استقى روح الكتاب من مصدر أجنبي، ثم صاغه صياغة عربية تلائم البيئة العربية»[2].

وأمام ضياع النسختين الهندية والفارسية إن وجدتا أصلا، تصبح النسخة العربية هي النسخة القديمة الوحيدة الباقية من الكتاب، ليرى بعض المشككين بأن أصل الكتاب عربي، وأن ما ورد في مقدمة المؤلف من سيناريو دبشلم وبيدبا وانوشروان وبرزويه، والقصص التي رويت على ألسنة الحيوانات، ما هي إلا من وحي خيال المؤلف عبد الله بن المقفع نفسه، ليرسم هالة للكتاب ويؤمّنَ نفسه من تهمة معاداة الخليفة، ف «الكتاب غير معروف في الآداب القديمة . بهذا الشكل . وما دبشلم الملك ولا بيدبا الفيلسوف ولا فورُ ملك الهند، إلا أعلام منسوبة إلى زمن لم تكن فيه وأمكنة لا تعرفها، ثم أن ما في الكتاب من احتقار للثور ومن آيات قرآنية كريمة،

(1).شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج3 العصر العباسي الأول، ص 520.
(2).عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ص ص 54 . 55.

وأحاديث نبوية شريفة ومن آراء لا شك في أنها من صلب الفقه الإسلامي، يدل على أن الكتاب نشأ في بيئة إسلامية عربية محضة. على أن الرغبة التي كانت آنئذ في الكتب المنقولة لا الموضوعة، واتهام ابن المقفع بكره أبي جعفر المنصور حملاه على أن يَنْحُل كتاب كليلة ودمنة لبيدبا الفيلسوف الهندي وأن يقول أنه نقله من اللسان الفهلوي إلى اللسان العربي.»(1)

وحقيقةً، أمام فقدنا للنسختين الهندية والفارسية، فقد فُتح المجال للتأويل والاتهام، وأنه لم يبق أمامنا إلا النسخة العربية بما تحمله من أهمية كبيرة، ويمكن اعتبارها التحفة الأدبية النثرية الوحيدة، التي اطلعت من خلال البشرية على هذا الكتاب، وسواء كان هنديا فارسيا أم عربيا فهو موروث إنساني عام .

محتويات الكتاب:

يتألف الكتاب من خمسة عشر باباً رئيسياً، وهي: باب الأسد والثور، وباب الفحص عن أمر دمنة، وباب الحمامة المطوقة، وباب البوم والغربان، وباب القرد والغيلم، وباب الناسك وابن عرس، وباب الجرذ والسنور، وباب ابن الملك والطائر فنزة، وباب الأسد والشغبر الناسك وهو ابن آوى، وباب إيلاذ وبلاذ وايراخت، وباب اللبوة والإسوار والشغبر، وباب الناسك والضيف، وباب السائح والصائغ، وباب ابن الملك وأصحابه، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين، وكلها قصص «تدور حول أسئلة يُلقيها ملك من ملوك الهند يدعونه دبشلم، على فيلسوف معاصر له يزعمون أن اسمه بيدبا، وقد أجاب بيدبا على هذه الأسئلة بأجوبة مناسبة، ثم ضرب على ما أجاب به أمثلة، واستخرج من كل شيء مغزى صرح به تصريحا أو تركه ملموحا»(2)، بالإضافة إلى أربعة أبواب جاءت في أولى صفحات الكتاب، وهي: باب مقدمة الكتاب، وباب بعثة برزويه إلى بلاد الهند، وباب عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع، وباب بروزيه ترجمة الوزير بزرجمهر .

(1).عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ص ص 54. 55.
(2).المرجع نفسه، ص 53.

ومن أبرز الأمثلة التي عناها في قصصه ما يتعلق بالأخلاق العامة كالوشاية التي تعمل على إفساد الصداقة تمثلها (حكاية الأسد والثور)، وعدم الاغترار بالعدو مهما أجتهد في إبداء حسن النوايا كما في (حكاية البوم والغربان)، والنهاية السيئة للواشي كما في (حكاية الفحص عن أمر دمنة) .وإضاعة الشيء الثمين بعد الاجتهاد في تحصيله وذلك في (حكاية القرد والغيلم)، كما تتضمن محبة إخوان الصفاء واستمرار مودتهم بالصدق والايثار والتعاون والمحبة بينهم في «حكاية الحمامة المطوّقة)، ومخاطر العجلة والندم بعد فوات الاوان كالذي حصل في (حكاية الناسك وابن عرس)، وموالاة بعض العدو عند تكاثرهم حول الشخص في (حكاية الجرذ والسنور)، وضرورة اتقاء أصحاب الثأر بعضهم لبعض في (حكاية ابن الملك والطائر فنزة)، ومراجعة الملك لمن أخطأ بحقهم أو عاقبهم بدون ذنب في (حكاية الأسد والشغبر الناسك)، والعفو عند المقدرة اعتبارا بما يحصل من مصائب في (حكاية اللبؤة والإسوار والشغبر)، وعمل المعروف في غير موضعه مع ابتغاء الشكر عليه في (حكاية السائح والصائغ)، ورفعة مكانة الجاهل في الدنيا وابتلاء الحكيم في (حكاية ابن الملك وأصحابه)، ومثل من يقدم النصيحة لغيره وينسى نفسه في حكاية (الحمامة والثعلب ومالك الحزين) .

وكثير من النصائح والتوجيهات التي تحملها قصص الكتاب، فهي مدرسة لتعليم الناس حكمة التعامل ونتائجها وخاصة مضارها، يقف في وسطها معلم حكيم يوجه سهام نقده البناء، ورياحين نصحه للناس حاكم ومحكوم بعد أن لاحظ امّحاء قيم التعامل الأخلاقية، التي اجتهد الإسلام في غرسها بين المسلمينوتغير حالها إلى النقيض، فأراد بها إحياء إنسانية المسلمين بعد أن ابتعدوا عن منهج حياتهم القويم.

القيمة الفنية للكتاب:

وقد عانى ابن المقفع الفارسي الأصل والهوى من نزعة العنصرية الأموية، وانتصار الأسرة الحاكمة للجنس العرب، وتسلطه واستئثاره بموارد الأمة دون بقية المسلمين، ليستبشر خيرا بثورة العباسيين لانتزاع الحكم، وإذا به يفيق على ظلم اكبر وعدوان أشرس، جعله يسعى

لتقديم النصيحة ومحاولة تقديم صفات الحاكم، وتعليمهم متطلبات سياسة الحكم التي يرى بأن الحكام العباسيين، لا يعرفونها في ممارستهم للسلطة والحكم، وذلك بالتحول من حكم القبيلة المنطلق من النزوة والرغبة، إلى سياسة الدولة التي تحكمها القوانين المستمدة من الأعراف الإنسانية والأخلاق السامية.

ورأى حكيم الخليفة المنصور استخدام أسلوب القصص المشوق، بعد أن ربطه بغايات مبطنة، وأنطق من أجلها الحيوان وأجلس المبغوض ذكرها في مجالس التحصيل؛ كالبوم والغراب والقرد والغيلم، فما بالنا بمجلس الخلافة وحلق العلم والحكمة لتقدم منظومة نسقية مكثفة أدى السرد الحكائي إلى بروز انساق عديدة؛ وذلك يبرز ما يخفيه من شعور العداوة لحاشية الحاكم العباسي، والترميز لهم برموز الخبث والجهل حقدا عليهم، لتأتي الجملة النسقية في هذا النص ويتجه الكاتب باتجاه تكوين أصوليات تهكمية، فالحاكم لا يستشير وزراءه ولا مرجعية له ولا تشاور في قضاء أحكامه، أما ملك البوم فيشاور في معاقبة الغراب وزيره الأول والثاني والثالث، ويسمع مبررات كل منهم على حدا، فإن كان غير العاقل لا يستبد برأي فكيف بالعاقل ينافي الواقع في استبداده برأيه، إنها لعبة النسق يلعبها ابن المقفع، ضمنيا في سياق قصص من نسج خيال غريب وسر من أسرار علامتها وتخفيها .

كما أن فرضية مجهولية المؤلف والمخاطب في هذه الأقاصيص، تضعنا أمام احتمال كونها رسائل مشفرة؛ فلا الملك دبشلم ولا الفيلسوف بيدبا حقيقة نوعية، وتتحول الرسالة إلى شفرة مخصصة التوجه، تكون مرجعيتها اعتبارات شخصية عاشها المؤلف في حكم المنصور، وحتى وإن كانت مترجمة فوجهة الترجمة تفرض مخاطَبا جديدا، لن يكون على الأرجح المتلقي الأول، ولأنه استفاد منها بات أمر «عدم نسبتها تنم عن كونها بموضع القانون الثقافي العام، إذ إنها قابلة لأن تكون»(1) قانونا أخلاقيا وعرفا جماعيا بامتياز.

كما يمكن اعتبار ابن المقفع النسخة الجديدة الواقعية لبيدبا الصورة الأصلية، وفي ذلك الانسحاب إنما هو اختفاء الواعظ خلف الستار خوفا من الموعوظ، وهذا ما يجعل السارد الجديد

---

(1)عبد الله الغذامي وعبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2004، ص61.

يتخفى خلف الوسائل المساعدة، ليجعل من أهداف القصة وغاياتها تتحول على ألسنة الحيوان، ولذلك يمكن تبرير غاية السارد خوفا واحتقارا للمخاطب أو كليهما، ويزيد من تأكيد ذلك عدم عودة السارد الأصلي إلى تبني تلك الرؤى وتقديم مفادها، إنما أوكل ذلك للحيوان الذي بات يحمل للإنسان القيم والمعاني الأخلاقية السامية، خاصة لحيوانات كان يحتقرها من قبل.

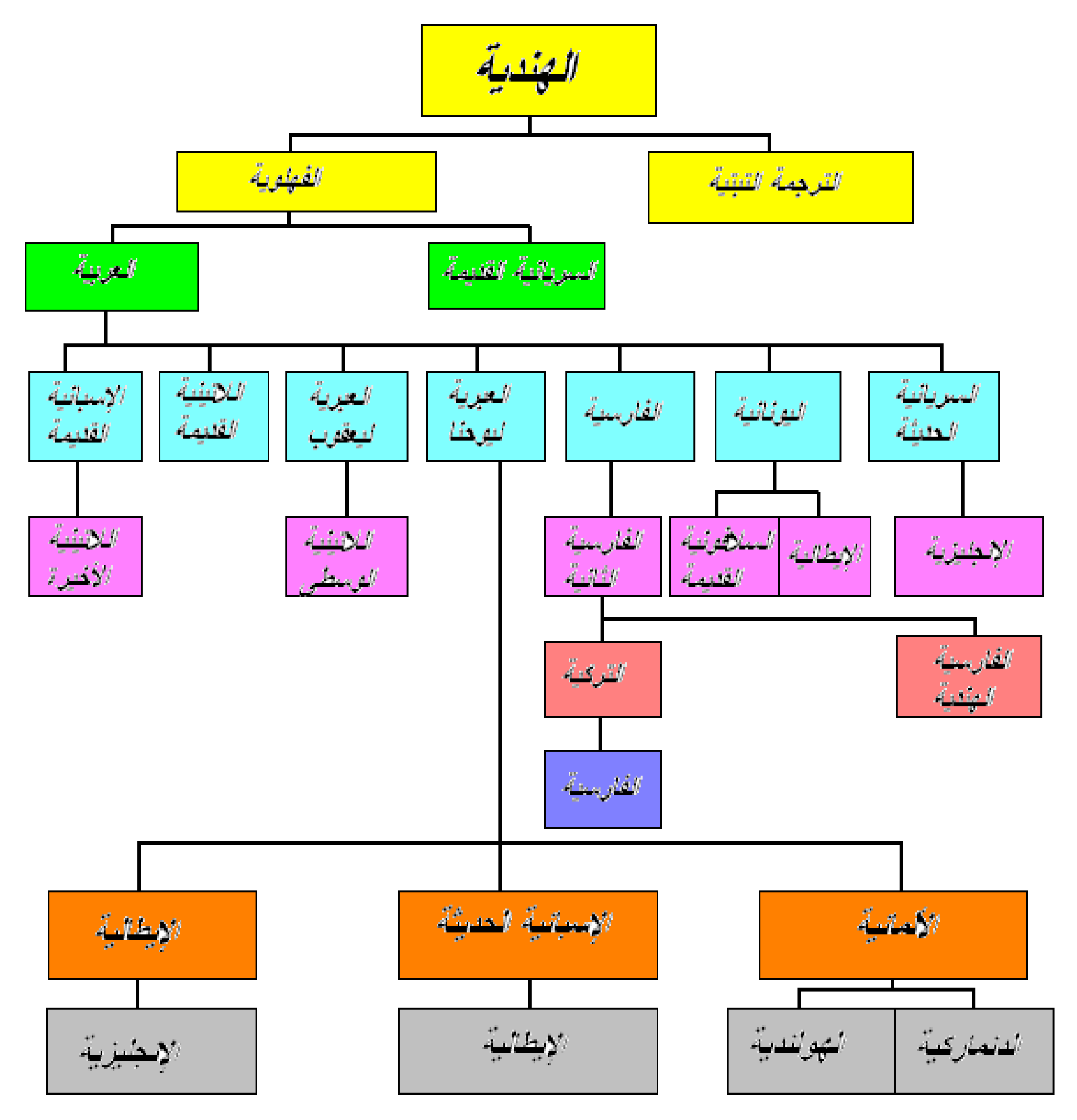
وانطلاقا من الخطاب الحجاجي الذي نجح فيه بيدبا الهندي في إقناع الملك دبشلم، أراد حكيم بني العباس إعادة التجربة، متخذا من بعض أصول الدين وروح أحكامك وسيلة، وهي قد نجحت عند الهنود ونجحت مع رسول الله ﷺ في تبليغ الرسالة لكفار قريش، وتكمن الشيفرة في تقديم المثل للتأكيد والإقناع، ففي الكتاب من آليات الحجاج ما يُعلم « الأمراء كيف يحكمون الرعايا وكيف يتقي بعضهم بعضا، وكيف يتعايش الناس فيما بينهم أو يسيرون على طاعة أولي الأمر منهم، وعمدة الكتاب أن ثمة مُثلا عليا ثابتة من طاعة السلطان، وحسن الصداقة ومن الصدق في القول والعمل ومن أدب الضيافة»[1]، وبصورة متناهية من الوضوح والتفصيل والإقناع. إلا أن بيدبا ملك الهند غامر بالنصح واستطاع التغيير في الأخير، أما بيدبا المنصور غامر بحذر ثم وُجد قتيلا في شوارع المدينة.

ترجمات الكتاب:

لقد كانت النسخة العربية من الكتاب هي نافذة إطلالة اعتمدت عليها جميع اللغات تقريباً، إما عن طريق النص العربي مباشرة أو عن طريق لغات وسيطة أُخِذت عن النص العربي.حيث تُرجم إلى السريانية في القرن العاشر أو الحادي عشر الميلادي، وإلى اليونانية من قبل«سيمون ست» سنة1080 م، وقد أعيدت ترجمته إلى الفارسية بواسطة أبي المعالي نصر الله في القرن السادس الهجري سنة1121 م، وإلى الإسبانية سنة1252 م .كما تُرجم الكتاب من العربية إلى العبرية من قِبل الحاخام يوئيل في القرن الثاني عشر الميلادي، طُبعت النسخة الألمانية من الكتاب سنة1483م، وهو ما جعل الكتاب واحداً من أوائل الكتب التي تمت طباعتها بواسطة

(1).عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ص 53.

مطبعة غوتنبرغ بعد الكتاب المقدس. كما تُرجمت النسخة اللاتينية إلى الإيطالية بواسطة أنطون فرانشيسكو دوني سنة1552 م، وأصبحت هذه النسخة الأساس لأول ترجمة إنجليزية، ففي سنة 1570 م قام توماس نورث بترجمتها من الإيطالية إلى الإنجليزية أعاد جوزيف جاكوبس سنة 1888م طباعة النسخة مرة أخرى، وقام الفرنسي أنطوان غالان بترجمة كتاب كليلة ودمنة عن أصل تركي إلا أنه لم يكمله، وقد أتم الترجمة «كاردن» سنة1788، كما قام لافونتين في سنة 1679بالترجمة استناداً على نسخة الأصل التركي الذي اعتمد عليه المترجمون الفرنسيون.



مخطط توضيحي لطبيعة الترجمات الخاصة بكتاب كليلة ودمنة الا اللغات الاجنبية[1]

---

(1)عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، تحقيق عبد الوهاب عزام وطه حسين، ص24.

البناء السردي لقصص كليلة ودمنة:

يحمل كتاب كليلة ودمنة مسحة غرائبية في أقاصيصه، إلا أن الوسط الفكري اقتبلها على تناقضاتها العامة، كونها من أدب مثير تجري على ألسنة الحيوان، معتبرا أن ما تحمله من رسالة قد يكون في ظاهرها الإمتاع القصصي كأول الأهداف المتوخاة، نظرا لما تعوده العربي من سمر حكايا مجالس السمر الشتوية الموسعة أو الخاصة، غير أنه في ضوء الموجات الفكرية وانطلاقا من مرجعيات الأنساق الثقافية المضمرة، التي كانت دافعا في ظهورها، نتأكد أن نسقية السرد المحكم فيها إنما كانت لتحقيق غايات وتوضيح حقائق، اختار لها المؤلف الإيحاء والتلميح بدل الجلاء والتصريح، خوفا على ما ينجر عليها من تعنت وعقاب، وسط ظروف يعايشها في مجتمع التكتل العرقي، فإن أُدركت المقاصد الحقة في تأليف هذه الأقاصيص بأن لاقت استحسان من أدركوها من فئات هوام الناس وعوامهم، تولدت فيهم تلك الانفعالات المتنوعة بإسقاط إشارات حيوانات الأقاصيص على حياتهم العامة .

كما يحمل الكتاب من الرموز والإشارات ما لا يمكن للناقد تجاهل أغراضه الظاهرة والمضمرة، تصلح مجالا لاستنطاق تلك الأنساق، فقد حملت مقدمة المؤلف العديد من التوجيهات التي تشير إلى أنساق المبدع الثقافية التي أراد إخفاءها، وإن صرح بالقول: « ينبغي للناظر في هذا الكتاب ومقتنيه أنْ يعلمَ أنّه ينقسم إلى أربعة أقسام وأغراضٍ: أحدها ما قُصِدَ من وضعه على ألسنة البهائم، ليتسارع إلى قراءته أهلُ الهزل من الشبان فتُستمالُ به قلوبَهم،لأنه الغرض الوارد من حيل الحيوانات، والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوفِ الأصباغِ والألوان ليكون أنساً لقلوب الملوكِ...والثالثُ أن يكون على هذه الصفة فيتخذهُ الملوكُ والسوقةُ، فيكثر بذلك انتساخَه... وينتفع بذلك المصوّر والناسخ أبداً، والغرض الرابع وهو الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصةً»[1].

ومن ثمّ يُوجّه ابن المقفع في هذه المقدمة (البيان)، قارئَ النص أنْ يديم النظرَ في كتابه، وأنْ يلتمس معانيَ خبأها خلف المعاني الظاهرة، وأنْ يغوصَ إلى ما وراء سطح المضمون

---

(1)عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر ، ط 1988، ص‌ص 56. 57.

المباشر التماسا لجواهر المعاني، ويحذّره من الغايات المباشرة في الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور..[1] مكررا في أكثر من موضع أن في الكتاب الظاهر والباطن، على نحو قوله: «من قرأ هذا الكتاب، ولم يفهم ما فيه، ولم يعلم غرضه ظاهرًا وباطنًا، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه»[2].

وقصص الكتاب تحمل في سياقاتها المنفردة قيما محدودة، يتفاوت عددها ويخضع لحجم القصة، ومدى ما ترسمه أدوار ممثليها وأحداثها من حضور في ساحة السجال والظهور،فبعض القصص تحوز مساحة طويلة يراد منها تحقيق أهداف عظمى،كما نلمحه في فسحة قصة (باب الأسد والثور) أو الباب المضاف بعده (الفحص عن أمر دمنة)، ويراد من طوله مزيدا من السرد للاستئناس به، ومحاولة إخضاع المستمع للصبر مع هذا السياق الجديد،والآلية المستحدثة وغير المعتاد عليها، أمام ما تعوده العربي من بلاغة الاختصار، إضافة إلى إنطاق الحيوانات وماكان يخشى ابن المقفع من عدم استساغته، لذلك حملت تلك القصص أسلوبا حكائيا لم يتعوده العربي في ممارسته للقص، لتتوالى القصص بمستويات وأهداف تصاعدية مكنت من التقنية إيصال رسائلها، وتحقيق أهداف ابن المقفع الضمنية، وخاصة في تنويع صورة الخطاب مع أن الحكيم في البداية كان يتحكم في توجيه الأمثال المقصودة، ليتحول تفاعله مع أسلوب السرد وإمتاعه، إلى أن الملك من بات يطلب المثل الذي يبحث عنه وبيدبا يقدم القصة عليه.

هذا ويبقى كتاب كليلة ودمنة اختيار ذكي من عبد الله بن المقفع، حين رفع قيمته إلى القداسة من خلال قصة استخلاصه وكتابته، فنال به الصبغة الإنسانية، وطرحه لمتعة المجالس وأنسها، وحذرهم من الخطأ في الحكم عليه بمطلق ذلك، فنال به الصبغة الإبداعية، وخاطب به الساسة والحكام في صورة نقد اجتماعي لاذع، عل عناصره من خلفاء ووزراء وولات تستيقظ ضمائرهم، فيراجعون سياسات تعاملهم، فنال به الصبغة الوعظية، فهو بذلك كتاب «التبس فيه

---

(1)ينظر: عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، ص55.

(2)المصدر نفسه، ص 47.

التاريخي بالمتخيل والممكن بالمحال، وانصاعت اللغة لكل ذلك واتسعت مسارب الدلالة فيها، فنهضت بما لم ينهض به أثر نثري من قبله»[1].

التعريف بصاحب الكتاب:

وُلِدَ عبد الله بن المقفع حوالي سنة 724م ، وكان اسمه "روزبة بن داذويه" في مدينة "جور" ببلاد الفرس، كان أبوه قد تولى الخراج للحجاج بن يوسف الثقفي أيام إمارته على العراق، فاختلس من أمواله، فضربه الحجاج ضربًا موجعًا حتى تقفعت يده، فسُمِّيَ المقفع.

استخدمه "عمر بن هبيرة" كاتبًا في دواوينه، ومن بعده ابنه "داود بن عمر بن هبيرة" وذلك في الدولة الأموية، أما في الدولة العباسية فقد عمل ابن المقفع كاتبا لـ "عيسى بن علي" عم الخليفة المنصور، وأسلم ابن المقفع على يديه في الأهواز وقُتِل بسببه!!.

اشتهر ابن المقفع حتى قبل إسلامه بمتانة أخلاقه، فكان فاضلا، كريمًا، عاشقًا لحميد الصفات ومكارمها، شغوفًا بالجمال كما كان مؤمنًا بقيمة الصداقة، ومساعدة المحتاج، ومن الحكايات المشهورة التي تُروى عنه، أن "عبد الحميد بن يحيى" كاتب الدولة الأموية الشهير، اختبأ في بيت ابن المقفع بعد قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، لكن رجال الدولة العباسية توصلوا إليه، ودخلوا عليهما بيت ابن المقفع، وسألوهما: أيكما عبد الحميد بن يحيى؟ فقال كلاهما: "أنا" فقد قبل ابن المقفع أن يضحي بنفسه من أجل صاحبه، لكن العباسيين عرفوا عبد الحميد وأخذوه إلى السفَّاح.

وقد كانت لابن المقفع آثار أدبية كثيرة أغلبها مترجمة عن الفارسية، منها: كتاب "فدينامه" في تاريخ ملوك الفرس، وكتاب "آبين نامه" في عادات الفرس ونظمهم ومراسم ملوكهم، وكتاب التاج في سيرة أنوشروان، وكتاب "الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة"، في أخبار السادة الصالحين، وكتاب "مزدك" وكتاب "قاطينورياس" في المقالات العشر، وكتاب "باري أرميناس" في العبادة، وكتاب "ايسافوجي" أو المدخل لفورفوريوس الصوري، وكتاب "أنا لوطيقا" في تحليل القياس، و"رسالة الصحابة" التي تدور حول الجند والقضاء والخراج، وتلك الرسالة تحوي الكثير من آراء ابن المقفع السياسية لإدارة الدولة الإسلامية المترامية الأطراف بحكمة، وذلك بإصلاح حال المجتمع، ورفع مستوى الجند والخراج

(1)محمد علي القارسي، "من مظاهر الحجاج في كليلة ودمنة" حوليات الجامعة التونسية، ع41، 1997، ص130.

والقضاء، وفي هذه الرسالة إشارة هامة وواضحة إلى ضرورة وجود ما يشبه "القانون العام" للقضاة بحيث لا تترك القضايا للاجتهادات الشخصية للقاضي.

ومن كتب ابن المقفع الشهيرة كتاب "الأدب الكبير" وكتاب "الأدب الصغير" وهما يحويان الكثير من الحِكَم المستمدة من الثقافات الإسلامية واليونانية والفارسية أما أشهر كتبه على الإطلاق فكان "كليلة ودمنة". ومن حكمه المشهورة: "المصيبة العظمى الرزية في الدين"، "أربعة أشياء لا يُستقل منها القليل: النار، المرض، العدو، الدَّيْن".

وتميز ابن المقفع بأسلوبه الرشيق السهل، فقد كان رأيه أن البلاغة إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها، وكان ينصح باختيار ما سهل من الألفاظ مع تجنب ألفاظ السَّفِلَة، ويقول: "إن خير الأدب ما حصل لك ثمره وبان عليك أثره".

فرغم كونه أعجميا في تفكيره يتعصب لآداب قومه وعلومهم، ولا تجد في كتبه من العربية إلا اللغة، فقلما يستشهد بالشعر أو المثل أو الحكمة أو يشير إلى أيام العرب وأرائهم، وعلى الرغم من ذلك كله فإن فضله على العربية عظيم؛ فهو أول من أدخل إليها الحكمة الفارسية والهندية والمنطق اليوناني وعلم الأخلاق والاجتماع، ومن عرّب وألف ورفع في كتبه مستوى النثر العربي إلى أعلى درجات الفن.

أما حادثة موته فقد أشارت إليها مراجع كثيرة، مفادها أن ابن المقفع كان كاتبًا "لعيسى بن علي" الذي أمره بكتابة نص عقد الامان بين اخيه عبد الله بن علي والخليفة المنصور، فأضاف ابن المقفع عبارة في الأمان نصها: "وإن أنا نلت عبد الله بن علي أو أحدًا ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت لأحد منهم ضررًا، سرًّا أو علانية، على الوجوه والأسباب كلها تصريحًا أو كناية أو بجبلة من الجبل، فأنا نفي من – محمد بن عبد الله – ومولود لغير رشدة، ولقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين، ولا عهد ولا ذمة، وقد وجب عليهم الخروج عن طاعتي، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق". فأسرَّها المنصور في نفسه، وتلقف تهمة كانت شائعة في تلك الأيام وهي تهمة الزندقة، رمى بها البعض عبد الله بن المقفع (وقد ثبتت براءته منها)، فأمر والي البصرة "سفيان بن معاوية" بقتله عام 759م. وكانت آخر كلماته: والله إنك لتقتلني؛ فتقتل بقتلي ألف نفس، ولو قُتِل مائة مثلك لما وفُّوا بواحد، عاش عبد الله بن المقفع 25 عامًا في ظل الدولة الأموية، و16 عامًا في ظل الدولة العباسية، وهكذا راح الأديب العبقري ضحية السياسة والخلافات السياسية داخل الأسرة العباسية، ولم يُقتل كخصم سياسي، بل ألصقت به تهمة المعرضة الجاهزة (الزندقة).